السعادة عندما يكون النمو ضعيفا

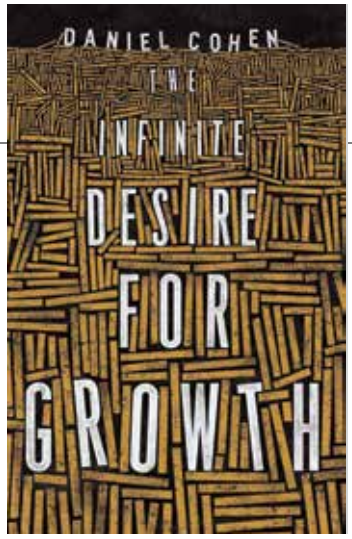

دانييل كوهين
الرغبة اللامتناهية في تحقيق النمو
Daniel Cohen
The Infinite Desire for Growth
Princeton University Press,
Princeton, NJ, 2018, 184 pp., $24.95

الثروة لا تجلب السعادة، وفقا لمفارقة إيسترلين. فالنمو الاقتصادي السريع يجعل الناس يعتقدون ذلك، ولكن عندما يعتري النمو الضعف وتقل ثروة كثيرين، يتبدد هذا الوهم. ويرمي كتاب «الرغبة اللامتناهية في تحقيق النمو»، وهو من تأليف الخبير الاقتصادي الفرنسي الشهير دانييل كوهين، إلى طرح بديل لهذه النتيجة.

وفي الجزء الأول من الكتاب، يدرس كوهين منشأ النمو على مستوى الألفينات لا القرون أو العقود. وهو يربط، بطريقة خلاّقة ولكنها تكهنية نوعا ما، بين منشأ النمو وبداية الزراعة في مواقع جغرافية بعيدة كل البعد عن بعضها البعض والتوسع السكاني الناجم عن ذلك. وقد حدثت لحظةُ فارقة في بداية القرن السابع عشر عندما بدأت الثورة العلمية في إحلال فكرة التقدم المادي محل الدين، الأمر الذي أدى إلى توليد النمو الاقتصادي الحديث من خلال الثورة الصناعية. ويربط كوهين ضمنا بين هذا الحدث ونشوء رغبة دائمة في تحقيق نمو سريع.

ومنتصف الكتاب هو جزؤه الأكثر ابتكارا والأكثر حفزا للفكر. فهذا الجزء، المعنون «المستقبل، المستقبل!»، يعرض حجة متسقة تتعلق بضعف النمو في المستقبل. ويبدأ الكتاب

ثمة سحابة تخيم على هذه الرؤية المتفائلة، فمن المحتمل القضاء على وظائف الطبقة المتوسطة

باستعراض أوجه التقدم التكنولوجي المقبلة، ويعرض لإمكانية تحقيق نمو أبدي. بيد أن ثمة سحابة تخيّم على هذه الرؤية المتفائلة، فمن المحتمل أن يترتب على ذلك القضاء على وظائف الطبقة المتوسطة.

وتتوالى الأفكار من خلال مناقشة شاملة لشكوك روبرت غوردون في مدى تأثير الاختراعات الحديثة على الرفاه الشامل. وتتكشف بعرض عملي لكيفية انخفاض النمو وتزايد عدم المساواة في اقتصاد لديه قطاع آلي متكامل لإنتاج السلع على درجة عالية من الإنتاجية إلى جانب قطاع للخدمات عديم الكفاءة إلى حد بالغ. وهذا التجريد يتسق بوجه عام مع بعض سمات الاقتصادات المتقدمة في نظريات يطرحها خبراء اقتصاد بارزون من قبيل وليام بومول وتوماس بيكيتي ولورانس سامرز. ويختتم هذا الجزء بالقول بإن عدم وقف الاحترار العالمي — بسبب مشاكل القيام بعمل جماعي — سيحول دون اتخاذ الاقتصادات النامية سريعة النمو أي إجراء بشأن النمو الاقتصادي الضعيف الذي يتولد عن الاقتصادات المتقدمة.

أما الجزء الأخير من الكتاب فهو محاولة غير مقنعة لتناول آثار النمو الاقتصادي الضعيف بالنسبة للرفاه. ويرى كوهين أنه ليس من الممكن تحقيق مستوى مقبول من السعادة إلا إذا حدث تحوّل في المجتمعات المنكوبة بنمو اقتصادي ضعيف. وسيتعين أن يكون هذا التحول عميقا لأنه يتطلب اتخاذ مواقف جديدة تجاه التقدم المادي، والعمل، والطبقات الاجتماعية.

وعلاوة على ذلك، تستند حجج رئيسية إلى بيانات من تقرير «السعادة العالمي» الصادر عن الأمم المتحدة، الأمر الذي يعني ضمنا الاعتماد على مقياس نسبي للسعادة من أجل استخلاص استنتاجات بشأن المستويات المطلقة للرفاه. والفرنسيون قد يحصلون في المتوسط على تقدير منخفض من حيث مستوى سعادتهم، ولكن من الصعب إقناعي بأن رفاههم مماثل لرفاه الناس في معظم بلدان أفريقيا أو أمريكا الوسطى ومنطقة البحر الكاريبي، حتى إذا كان متوسط تقدير سعادتهم هو نفس تقدير سعادة الآخرين أو مشابه له.

وقد رأيت أن الجزء الأول من الكتاب مثير للاهتمام، والجزء الأوسط ممتاز وقراءته ممتعة، سواء اتفقت أو لم أتفق مع الحجج التي يطرحها. أما الجزء الأخير من الكتاب فقد كان، على العكس من ذلك، مخيبا للآمال. FD

روجر بيتانكورت، أستاذ فخري لعلم الاقتصاد بجامعة ميريلاند.